

الأب جوريو بلزاك

بسم
السيدة صوفى عبدالله

١ — بلزاك : حياته وأدبه

فلم يدع وجهاً من وجوه النشاط الإنسانى ولا لوناً من ألوان الشئال والعادات والطباع فى طبقة من الطبقات إلا ورصدها فى مرسمه الهائل ، فجاءت قصصه التى تتكون منها الكوميديا الإنسانية مجتمعاً عجيباً من الأطباء والمحامين والموظفين والصحفيين ورجال الكنيسة وأصحاب الحوانيت والكادحين بأيديهم فى المدينة وفى حقول الريف ، والمحاربين ، والنساء من كل سن ومعدن . تجدهم هناك ماثلين نابضين بالحياة وقد كدس بلزاك عنهم من الملاحظات حشدًا هائلا يتميز بالدقة والحصافة وصدق الفراسة .

ولم يكن بلزاك مصوراً فوتوغرافياً ينقل الأحياء عن الواقع إلى صفحات الورق . بل كان قبل هذا كله وبعد هذا كله كاتباً خلاقاً بكل معنى الكلمة . فالنماذج البشرية التى خلقها خلقاً أكثر من أن تحصى وأبقى من ملايين البشر الذين دبوا على وجه الأرض حقيقة وصدقاً فلم تبق لهم باقية إلا بما استنفدوا بأنفسهم من هواء الدنيا .

ومن قبيل النماذج البشرية الأنماط الإنسانية الحية التى كان لبلزاك فضل إيجادها فنحها الخلود حين نفخ فيها من روحه وحمل الناس على الإيمان بوجودها مثلما

لا تصدق صفة الحصوبة على كاتب قصصى فى العالم أجمع مثلاً تصدق على بلزاك . فعظم الكتاب الروائيين الذين خلدت أسماؤهم فى تاريخ الأدب إنما اكتسبوا مكانتهم من كتاب أو كتابين أو من شذرات متفرقة ثبتت نفاسها من بين الركام الهائل الذى خلفته أعلامهم . بل إن منهم من يخلد له عمل قصصى واحد هو كل رصيدهم فى الإنتاج القصصى كأنه بيضة الديك (كما هو الشأن فى « أعلى ويدرنج » قصة اميلى بروننى الوحيدة) . وما أقل من بقى للخلود معظم ما كتبوا أو كله . وأياً كان شأن هؤلاء فهم لا يجارون فى الحصوبة والشمول صاحبنا بلزاك . فالغالب عليهم أن يتخصص الواحد منهم فى جانب من جوانب الحياة الإنسانية وتصويرها وعلاج أعماقها وآفاقها . أما أونوريه دى بلزاك فكان ميدانه الحياة البشرية كلها بما رحبت فى زمنه وفى أمته . وكان زمنه زمناً عجيباً حافلاً بالتقلبات والأطوار . وكانت أمته فرنسا بؤرة تجتمع فيها النقائص من أحوال الطبقات وظروف التاريخ وألوان القيم الاجتماعية والفكرية والوجدانية .

آمن بها مؤلفها ومبدعها شخصية «الأب جوريو»
الذى نحن بصدددها في لباب هذا الحديث .
ولماذا نعتنا بلزك بالخصوبة من دون سائر
الصفات ؟

ذلك أن الخصوبة هي أبرز صفاته الفنية الخلاقة
بغير منازع . فلم يكن بلزك في حقيقة أمره صاحب قيم
فكرية محلقة تتميز بالسمو على مستوى تفكير الرجل
العادى . ولا تحمل كتاباته في طياتها إحياء بعالم أعلى من
عالم الواقع الاجتماعى الذى عاشه في عصره ووطنه . فهو
ليس رجلاً أعلى من مستوى بيئته وظروفه ، ولا فناناً
أكبر من الحدود التى نشأ فيها . فايدست له صفة الريادة
الفكرية أو الخلقية . ومحاوالاته جميعاً تشبه من حيث أنها
تعيش في حدود ظروفه التاريخية والاجتماعية معترفة بها
ماضية على سننها غير خارجة عليها . ولا رانية بطرفها
إلى ما هو فوقها .

إنه صاحب عبقرية قوية جبارة في ضخامة انتاجها
وصدقه ودقته . ولكن فيما وراء هذه الخصوبة والقوة
ليس له دعوى يدعيها في مجالات السمو أو الريادة .
ولعل هذه الطبيعة المحدودة قد وجهت قوة طبعه
كلها إلى عشق الحياة والعتو في معاناة خبراتها الضيقة
بصورة عميقة متغلغلة . ومن خلال انشغال نفس بلزك
بالمال والجاه الدنيوى ذلك الانشغال القوى العنيف
خرجت لنا شخصيات قصصه وكأنها مصابة بمس من
حب هذه الدنيويات والاندفاع وراءها . فعاشت لبلزك
هذه الشخصيات عن طريق الخيال ما عجز هو عن
تحقيقه في دنيا الواقع .

وما دام أدب بلزك تجسماً فنياً متخيلاً لاشتهاءات
روحه ودوافع حياته فعلاً وعناصر شخصيته وظروف
زمنه وأمته . فإذا كانت حياته ؟

أضحى مظاهر هذه الحياة اكباره الشديد لقيمة
المال : فلئن كان كثيرون يعتبرون المال مصدر كل
شر في حياة البشر ، فإن بلزك كان يعتبر حب المال

هو المصدر الأساسى لأفعال الناس والباعث الجوهرى
الذى يمكن وراء حماسهم ونشاطهم الحيوى . فليس لأى
إنسان طموح في نظره هدف وراء الحياة الفخمة الرخية
والتقلب فوق أكوام من الذهب .

واسم بلزك الحقيقى هو «بلسا» . وكان أجداده
من عمال الزراعة إلا أن أباه كان محامياً صغيراً على عهد
الثورة استطاع بوسائل انتهازية أن يرتقى في السلم
الاجتماعى ، وما أن انتهت الثورة حتى اتخذ اسم بلزك
وتزوج من فتاة ورثت ثروة لا بأس بها واستقر في
مدينة «تور» مديراً إدارياً لمستشفاهها وهناك ولد
أونوريه في سنة ١٧٩٩ فكان الابن الرابع لأبويه .
وقضى أونوريه بضع سنوات في المدرسة هناك كان فيها
مثال التلميذ الكسول الخائب ثم انتقل للعمل كاتباً حقيق
الشأن في مكتب بعض المحامين بباريس . وتقدم بعد
ثلاث سنوات إلى امتحان المحاماة فنجح فيه . وإذا به
يأتى بعد ذلك كل الالباء أن يشتغل بالمحاماة كما أراد له
أبواه ، وأعرب عن رغبته في اتخاذ مهنة أثارت استنكار
أهله . وكانت هذه المهنة هي الكتابة . وبعد خلاف
محتدم خضع أبوه ورضى أن يمنحه فرصة . وأن يرتب
له مبلغاً سنوياً صغيراً يعيش به عيش الكفاف مقيماً
بمفرده .

وكان أول ما كتبه تراجيدياً عن حياة «كرومويل»
وقرأها على هيئة الأسرة مجتمعة فأجمعوا على تفاهتها .
ثم حسماً للنزاع بعثوا بها إلى أستاذ معروف فجاء رده
الحاسم بأن مؤلف هذا «الشيء» له أن يتخذ أما حرفة
يشاء ما عدا الكتابة والتأليف ! وغضب بلزك وقرر
التخلي عن نظم الشعر المسرحى إلى تأليف القصص
المقروءة نثراً . وفي مدة وجيزة ألف ثلاث روايات
حذا فيها حذو السير وولتر سكوت ولورد بيرون
وآن رادكليف . ولكن أسرته رفضت الروايات الثلاث
وحكمت على تجربته الروائية بالفشل وبأنه استنفد الفرص
المتاحة له ، وطلبوا إليه العودة إلى أحضان الأسرة في

ويلتمس لديها حنان الأمومة الذي افتقده لدى أمه الجادة الجافة العواطف .

وكان طبيعياً أن تنشط ألسنة السوء وتنفوح رائحة الفضيحة كما هي العادة في الريف . وكان طبيعياً كذلك أن تضيق أم بلزك بهذه العلاقة الشائنة بامرأة تعادها في السن . وفي الوقت نفسه كانت إيرادات بلزك من الكتابة ضئيلة بصورة بعثته على التفكير في مزيد من العناية بمستقبله وهو الإنسان الطموح الخب للثراء والجاه والشهرة . وعندئذ انبرت عشيقته مدام دي بارني فأقرضته من حر مالها خمسة وأربعين ألف فرنك أى نحو ألفين من الجنيهات الذهبية تساوى قيمتها في ذلك الوقت ما لا يقل عن عشرين ألفاً من الجنيهات بعملتنا الحالية جعلها رأس مال له فأنشأ مع شريكين آخرين مؤسسة تولى إدارتها شخصياً للنشر والطباعة وسباكة الحروف .

وما أن غدا أونوريه مدير مؤسسة في باريس حتى اندفع مجنون في حياة التأنق واللهو والاسراف والبذخ . ولم يكن يفقه في الشؤون المالية شيئاً فلم تمض ثلاث سنوات حتى صفيت المؤسسة واضطرت والدته إلى دفع مبلغ مماثل لما دفعته مدام دي بارني في البداية كى تنقذه من السجن بناء على طلب دائنيه .

ولكن رب ضارة نافعة . . فقد صهرته هذه المحنة وتعلم منها دروساً في الحياة العملية وفي المعاملات وفي طبائع البشر وفي الانفعالات المتصلة بالأزمات والضائقات والمناورات السوقية مما أفاده كثيراً في كتابة قصصه العظيمة بعد ذلك .

ورحل بلزك بعد الكارثة عن باريس فأقام لدى بعض أصدقائه في مقاطعة بريتانى حيث عكف على كتابة أولى رواياته العظيمة التى نشرها باسمه الصريح وكانت سنة وقتذاك ثلاثين سنة . وظل بعد ذلك يكتب باجتهاد جنونى إلى أن وافته منيته بعد ذلك بواحد وعشرين عاماً ، ألف فيها عدداً من القصص الطوال

«ثور» في أول مركبة يريد ليدبروا له مهنة جديدة فامثل . وهناك اتصل به بعض صغار الكتاب وصغار الناشرين لتأليف روايات مسلية يعتمد معظمها على إثارة الغرائز تنشر بأسماء مستعارة نظير أجر نجس فأكتب على هذه الحرفة خمس سنوات إلى سنة ١٨٢٥ . ويقدر البعض عدد الروايات التى كتبها لهذا الغرض فى تلك المدة بنحسين رواية كان يصيب منها أجراً ضئيلاً جداً . ومعظمها ذات إطار تاريخى .

ومهما يكن من رداة هذه الروايات التى تبرأ منها مؤلفها فيما بعد ولم يعترف بها ضمن أعماله الأدبية فقد كان لها فضل كبير فى تمرين قلم بلزك على التدفق والسلاسة والانطلاق فى الكتابة بلا تهيب والمرانة على الموضوعات الشعبية التى يعتبرها القراء أهم موضوعات للكتابة ألا وهى الثروة والعشق ومعانى الشرف بالمفهوم الاجتماعى الشائع . مع العناية بالانفعالات فى حياة الناس أكثر من العناية بالأفكار . والحق أن العواطف العنيفة قد تكون مسفة أو تافهة القيمة أو رعناء غير طبيعية ، إلا أن عنفها العام يعوضها عن ذلك كله جواً من الضخامة والرهبة .

والحقيقة أن بلزك عاش فى هذه السنوات نفسها تحت سلطان انفعالى من هذا القبيل . ففي المنطقة القريبة من محل إقامة أسرته تعرف بـ مدام دي بارني وهى ابنة موسيقى ألماني كان فى خدمة الملكة ماري أنطوانيت قبل الثورة ، كما كانت هى من بين وصيفاتها . لها من العمر خمس وأربعون سنة ، ولها زوج معتل الصحة كثير الشجار أنجبت منه ثمانية أطفال فضلاً عن طفل تاسع أنجبته من عشيق لها سابق . وسرعان ما تعلق بلزك الشاب بهذه السيدة التى غدت عشيقته وظلت مقيمة على مودته إلى أن قضت نحبها بعد ذلك بأربع عشرة سنة . وكانت علاقة بلزك بها عجيبة فهو مشغوف بها شغف العاشق المندف . وهو فى الوقت نفسه يبثها الحب الحنون

والقصار لا يكاد يدركه الحصر. ففي كل سنة كان يصدر رواية أو روايتين طويلتين وقرابة عشرين ما بين رواية موجزة وقصة قصيرة. وإلى جانب هذا كله ألف عدداً من المسرحيات لم تقبل المسارح بعضها. وما مثل منها لم يكتب له النجاح ما عدا مسرحية واحدة. وفضلاً عن ذلك أصدر فترة من الزمن صحيفة تظهر مرتين في الأسبوع كان يحرر بنفسه معظم موادها. وكان من عاداته أن يحمل معه دائماً كراسة للمذكرات، وكلما وقع على شيء يصلح لمادة قصصه أو خطرت له خاطرة أسرع بتدوينها بلا حرج أمام أنظار الناس. ويعنى بتسجيل الأوصاف الدقيقة للأزقة والشوارع والبيوت والأثاث التي يستخدمها مسرحاً لأعماله الأدبية. ويعنى عناية شديدة أيضاً بتدوين الأسماء الغريبة لأنه كان يعتقد أن الاسم ذو صلة بشخصية صاحبه.

وعلى ما كان بهذا الرجل من نهم للذاذات الدنيا ومناعمها الحسية وشهواتها كان ينقلب في فترات الاشتغال بالتأليف راهباً من رهبان الفن لا يقرب شيئاً من تلك الأمور كلها ويعيش عيشة منمطة فيأوى إلى فراشه متى فرغ من وجبة العشاء المبكرة وينام إلى أن يوقظه خادمه في الساعة الواحدة صباحاً فيتدثر بالروب الأبيض الشهر فوق جلبابه الأبيض الناصع، لأنه كان يعتقد أن ألباس البياض من مستلزمات الكتابة ويشترط أن تكون هذه الثياب نظيفة طاهرة خالية من اللطخ والأوزار والشوائب. وعلى ضوء الشدوع ينصرف إلى الكتابة بريشة من قادمة غراب أبيض مستعيناً بأفداح متواليه من القهوة المركزة حتى الساعة السابعة صباحاً فيدخل الحمام ثم يستلقى ليسترخ. وفيما بين الثامنة والتاسعة يحضر ناشره ليسلمه تجارب المطبعة ويتسلم منه ما كتبه في ليلته. وبعد خروجه يستأنف بلزак الكتابة حتى الظهر فيتناول غذاء من البيض المسلوق ولا يشرب إلا الماء والقهوة وينصرف بعد ذلك للعمل حتى السادسة

مساء فيتناول عشاءه الخفيف مع كأس واحدة من الخمر. وقد يزوره على العشاء صديق أو صديقان حميان ولكنهما ينصرفان بعد سمر يسير جداً لينام الأستاذ.

ولم يكن يدري حين يشرع في الكتابة ماذا ينوي أن يكتب بالضبط، فيبدأ بمسودة إجمالية يعيد بعد ذلك كتابتها وتصحيحها، ويغير من ترتيب الفصول، ويشطب بعض الفقرات ويضيف أخرى أو يعدلها. ويرسل في النهاية إلى المطبعة مخطوطاً لا تكاد تحل طلاسمة فإذا أتته تجربة المطبعة بعد التعديل والتصحيح النهائي من جانب المصححين المحترفين عكف على تعديلها المرة بعد المرة على نطاق واسع. ولا يسمح في النهاية بالطبع إلا على شريطة إتاحة الفرصة لتعديلات أخرى في الطباعات القادمة بغية المراجعة والتحسين. ولا يبالي بما يتكبده الناشر بسبب ذلك من نفقات مضاعفة يثر بسببها المازعات المستمرة.

وبمناسبة علاقته بالناشرين نذكر أنه كان لا يتحرج عن الحصول منهم على نصيب من أجر الكتاب مقدماً متعهداً بتسليم المخطوط كاملاً في تاريخ معين، ولا يلبث أن ينفق ذلك المال وهو في منتصف الكتاب، فيكف عن الكتابة ليكتب فصولاً من قصة أخرى تناول من ناشر آخر جزءاً من ثمنها. وبذلك يدخل في دوامة من إخلال المواعيد، والكتابة في ثلاثة أعمال أو أربعة في وقت واحد، وكأن الشيطان في أعقابه يتعجله بسياطه أن يتم هذا وذاك وتلك! وما أكثر القضايا التي خاضها والتعويضات التي حكم عليه بها بسبب إخلاله بعقوده مع الناشرين.

وما أن واثته الشهرة حتى عاد لحياة البذخ فاستخدم وصيفاً خاصاً وطباخاً وخادماً. وكان يكسو خدمه ثياباً رسمية ابتدع نموذجها بنفسه. وأضاف إلى اسمه كلمة «دى» لتوهم بنبالة أصله. ولعله من أوائل من فتنوا بزخرفة المسكن من الداخل فأنفق في ذلك نفقات طائلة

على زخرفات غريبة فاخرة سقيمة الذوق ! وبطبيعة الحال تورط في الديون ممن يعرفهم ومن لا يعرفهم على السواء . ويذهب هذا المال غنيمة باردة لتجار الأواني الخزفية العتيقة وقطع الأثاث المهشمة التي يقال له إنها من مخلفات فلان في القرن الفلاني يجمعها ويكدسها في مسكنه لتزيد من فساد ذوقه ولا حديث له مع زائريه وناشريه إلا عن الملايين الوهمية التي تمثلها تلك الصحف المكسورة المعلقة والأخونة والكراسى العرجاء .

ورغم التماع اسمه قتر على والدته التي ضحت بثروتها لانفاذه من سجن المعسرين وكثرت رسائلها إليه مستنكرة ومؤنبه وهو لا يكاد يبالي ! ثم وعدا بمائتي فرنك كل ثلاثة أشهر لأجر مسكنها وخادمتها وهي تساوى ثمانية جنيهات ذهبية . ثم كانت تمضي السنتين والثلاث من غير أن يؤدي هذه المخصصات القليلة إليها ، في الوقت الذي كان ينفق الألوف المؤلفة على مجوهراته الشخصية وعصيه المطعمه بالذهب والأحجار الكريمة وثيابه الفاخرة وولائمه الباذخة داخل بيته وخارجه . ومن عجب أنه كان معتدلاً في طعامه وشرابه حين يأكل وحده . حتى إذا أكل مع غيره أظهر شراهة تستلفت الأنظار . ومن عجب أيضاً أنه يكف عن الكتابة متى امتلأت جيوبه بالمال ، حتى إذا نضب معينه من النقود أكب على الكتابة باندفاع جنوني ليل نهار إلى أن يصيبه الذبول والشحوب . وتحت ضغط الحاجة إلى المال أو مطالبات الدائنين كتب أعظم مؤلفاته . حتى إذا تركوا له هدنة من غير مطالبة أو مشاغبة تبلد ذهنه وخبث قريحته !

وقد جلبت عليه شهرته صلات نسائية كثيرة بعد أن فتحت له أبواب صالونات الطبقة العليا . ووجد بين سيدات هذه الطبقة الكثيرات من العشيقات والصدقات من أشهرهن المركزية دى كاسترس وهي ابنة دوق وحفيدة الملك جيمس الثاني ملك إنجلترا . وصار يتأنق ويتضمخ بالطور حين يذهب لزيارتها كل يوم . ولا

تسمح له بأكثر من تقبيل يدها . ولم ينفص يده منها إلا بعد أن وثق بأنها تريده معجباً ملها لا عشيقاً . وكان قد تبعها إلى جنيف هي وعمها وخرج معها في نزهة خلوية على انفراد طالبها فيها بالاستجابة للواعج غرامه فردته رداً جارحاً وعاد إلى المدينة مستهل العبرات ! ولم يلبث أن عاد إلى باريس وقد استفاد من هذه المغامرة القاسية نموذجاً ممتازاً لنوع من العلاقات التي تسود الطبقة العليا وقد استغل هذا النموذج في كثير من قصصه بعد ذلك . وكانت مغامرته الثانية مع سيدة روسية راسلته من أوديسا باسم مستعار ، فما كان من بلزك إلا أن نشر إعلاناً في الصحيفة الفرنسية الوحيدة التي تدخل روسيا القيصرية عندئذ كي تتصل به هذه السيدة صراحة ، فاستجابت . وكانت تدعى إيفلين هانسكا وهي نبيلة بولندية واسعة الثراء في الثانية والثلاثين مقترنة بنبيل روسي أسن منها بكثير . وبذلك بدأت العلاقة العاطفية الكبرى في حياة كاتبنا . وأخذت رسائلهما تزداد حرارة وصراحة . وكشف لها بلزك عن جراح قلبه فأثار شفقتها واستثار الجانب الرومانسي فيها وهي التي تعيش حياة رتيبة مملّة في قصر زوجها بأوكرانيا وسط خمسين ألف فدان من أرض السهول المنبسضة المتشابهة . وبعد سنتين من التراسل دبرت السيدة حضورها مع زوجها وابنتها وحاشية من الخدم والأتباع إلى سويسرا ثم دعت بلزك للإقامة هناك في ضيافتها . وكانت في أوج فتنها حينئذ . وقد أخذت بعض الشيء عندما رأت أمامها رجلاً بديناً أحمر الوجه أشبه بالجزارين منه بالكتاب والفنانين . ولولا ما في عينيه الذهبيتين من وميض أخاذ لنفرت منه نفوراً شديداً . ولم يلبث أن صار عشيقها ولم يفترقا إلا على موعد للقاء في الشتاء بمدينة جنيف . وفي الأسابيع الستة التي قضها معها هناك انتقم من المركزية الإنجليزية بقصته « دوقه لانجيه » وعندما عاد إلى باريس تعرف بكونتيسة من أصل إنجليزي شقراء شهوانية مولعة بخيانة زوجها المتساهل .

ولم يلبث أن شغف بها وصارت عشيقته في باريس مدة طويلة وذاعت هذه العلاقة وخاضت فيها الصحف المولعة بالغط والفضائح . وعرفت الحسنة البولندية بخيانتها فكشفت إليه تويخاً قاسياً أزعه جداً لأنه كان قد بنى آمال مستقبله على الزواج بهذه الثرية النبيلة بعد وفاة زوجها بإذن الله ! فاقترض مبلغاً كبيراً وأسرع إلى فينا حيث تقم ليرضاها وأنفق بجنون على مظاهره في تلك الرحلة وكأنه يتبها الحياة النبلاء الروس المترفة بالفعل ولكنها ردتة رداً أليماً وفارقتة إلى أوكرانيا مغضبة فلم يلتقيا إلا بعد ذلك بثماني سنوات ، وعاد إلى باريس وإلى عشيقته المتهتكة المتلافة فدخل بسببها سجن المعسرين ولكنها دفعت عنه دينه الباهظ وظلت مواظبة على إنقاذه من ضائقاته المالية بعد ذلك ، ثم رزق من عشيقته تلك بطفل . ومما يذكر بهذه المناسبة أن ذرية بلزك من عشيقاته المختلفات غلام وثلاث فتيات ، لم يشغل نفسه بهم على الإطلاق . وتعددت صلواته الغرامية بنساء من المعجبات في فترات متقاربة . كانت تكبده نفقات باهظة . وكان ينتهى بالاقتراض منهن قروضاً مدمرة لثروتهن . وفي سنة ١٨٤٢ مات النبيل الروسي زوج عشيقته البولندية ف شعر أن فرصته حانت أخيراً للثراء العريض والتخلص من ديونه المرهقة . ولكن الأرملة الحسنة أعلنت عن عزمها على العزوف عن الزواج ، والزواج منه بصفة خاصة لأنها لم تستطع أن تتناسى خياناته وتبذيره وديونه . فأطبق عليه اليأس وأرسل إليها يقول إن الوفاء الجسدى لا قيمة له ، فالمهم أنها تملك قلبه في كل وقت . وما من امرأة أخرى ملكت هذا القلب . وصمم على التوجه إليها لإقناعها شخصياً « ورحل إلى بطرسبورج لذلك الغرض . وكانت سنه اثنتين وأربعين سنة أما هو فكان في الثالثة والأربعين . وكلاهما بدين . وقد تحقق ظنه فحسم وجوده شكوكها وترددها وأصبحت عشيقته للمرة الثانية ولكنها أبت أن تزوجه . ولم تقبل إلا بعد سبع

سنين . والغالب أن ترددها الطويل في الزواج لاختلاف مكانتها الاجتماعية النبيلة عن مكانته ، فلا حرج أن تتخذه عشيقاً وإنما الحرج في أن تحمل اسمه ! وكان هذا رأى أسرته أيضاً ولا سيما أن ابنتها في سن الزواج : وظل بلزك طيلة السنوات السبع يغترف من ثروتها بلا حياء . ونتج عن هذه العلاقة طفل ولد ميتاً في سنة ١٨٤٦ ولم تزوجه إلا في سنة ١٨٥٠ في ضيعتها بأوكرانيا وثقل عليه الشتاء الروسي القارس قبل الزواج فرض وتم الزواج وهو مريض وعادا معاً إلى باريس حيث اشترى من مالها مسكناً ضخماً أثنه ببذخ عظيم . وعادوه المرض فلم يبيل منه ومات في السابع عشر من أغسطس سنة ١٨٥٠ فحزنت عليه إيفلين زوجته حزناً عظيماً لم يخفف من لواعجه بعض الشيء إلا اتخاذها رساماً فاشلاً شديد القبح يلقب لدمامته بالقملة الغبراء . . . اتخذته عشيقاً !

٢ - الأب جوريو

تمتاز قصة « الأب جوريو » بأنها من أكثر ما كتبه الروائي العظيم بلزك تمثيلاً لمزاياه الفنية الكبرى . وأول هذه المزايا حيوية الشخصيات الأساسية التي يعتبر كل منها نمطاً بشرياً تتمثل فيه عاطفة معينة بسيطة فطرية عاتية عتواً خارقاً للمألوف . فلم يكن بلزك موفقاً كل التوفيق إذا عرض أحياناً لوصف شخصيات معقدة التكوين . وهذا هو الفارق الأكبر بينه وبين روائي عظيم من طراز آخر مثل فيدور دوستوفسكى . ويضاف إلى ذلك أن قصة « الأب جوريو » تتميز بالتشويق المتصل من بدايتها إلى نهايتها بحيث تستولى على القارئ استيلاء شديداً . فهي خالية من العيب الذى قد يوجد في بعض قصصه الأخرى حين يدع شخصيات روايته وأحداثها جانباً ليدلى إلينا بآرائه وتحليلاته الخاصة في مختلف أمور الحياة وفلسفاتها مما يعيننا أو لا يعيننا ولكنه ليس من سياق القصة ولا من تكوينها الأساسى في شيء ، ومكانه

الصحيح في مقال أو دراسة مستقلة . أما في قصة « الأب جوريو » فلا وجود لشيء من هذه الشوائب المقحمة ، فهو يترك شخصياته تنفرد بمجال القول والعمل معبرة عن نفسها بألفاظها وأفعالها في موضوعية كبيرة . والنسيج الفني لعناصر القصة وشخصياتها متداخل السدى واللحمة . أما السدى فهو ذلك الحب الأبوى المسرف من جانب الشيخ جوريو نحو ابنتيه العاقبتين . وأما اللحمة فهي مطامع الفتى راستينيك وطموحه الدنيوى وخطواته الأولى التي شق بها طريقه الصاعد المتسلق وسط زحام المجتمع الباريسي الفاسد إلى درجة التعفن .

ومما يجدر بالذكر أن بلزاك أول روائى اتخذ نزلا بمثابة بؤرة أساسية للرواية . فقصة « الأب جوريو » هي قصة الأشخاص الذين أقاموا في فترة معينة بنزل تملكه سيدة عجوز تؤجر حجراته المقروشة لأبناء الطبقة الوسطى الصغيرة . وقد حذا روائيون كثيرون حذو بلزاك في هذا النهج بعد ذلك . لأنه نهج خصب ييسر للمؤلف أن يجمع في إطار واحد شخصيات شديدة التباين . ورغم كثرة المقلدين ظلت قصة « الأب جوريو » أنجح قصة عولج فيها هذا النهج ، بغير استثناء « اميل زولا » الذي حاكى بلزاك في قصته « الأب جوريو » عندما ألف قصة « البيت المنقسم » .

ويبدأ بلزاك القصة - شأنه في سائر رواياته - ببطء واضح . فطريقته الوصفية المدققة تحمله على إيراد وصف تفصيلي لمسرح الأحداث في القصة . ويبدو أنه كان يجد لذة خاصة في ذلك فيغمر القارئ بهذه التفاصيل والمعلومات بصورة تتجاوز كل حد معقول لرغبة قرائه . والحق أن بلزاك في تدفقه الطوفاني في الوصف كالنهر الشاب الذى يحتاج إلى تهذيب وتحكم عن طريق السدود والجسور والخزانات . فبلزاك ظل إلى أن مات يجهل فن الإدلاء بما هو ضرورى فحسب والإحجام عما لا حاجة به إلى ذكره . فنجد البداية يصير هذا الخالق على أن يخبرك بلامح الشخصيات التي

ابتدعها وأمزجتهم وميولهم وأنسابهم وعاداتهم وآرائهم ومواضع قوتهم وضعفهم - وبعد ذلك فقط - يشرع في رواية قصته . وبهذا نجد الشخصيات منذ البداية مرسومة مع جوها وماضيها بألوان قوية أولية صارخة تختلف كثيراً عن ألوان الحياة الواقعية المألوفة لأنها أشد منها حيوية ودقة وتمائزاً في الحدود . ومع هذا فشخصياته تنبض بالحياة وتنفس وتجبرك على الإيمان بوجودها . وهذا راجع إلى عمق إيمان المؤلف بها شخصياً . فما يذكر عنه أنه آمن بوجود طالب الطب بيانشون الذى أنشأه أول مرة في الأب جوريو ، وأعاد إظهاره طبيياً بارعاً مخلصاً لمهنته في قصص أخرى . فلما حضر بلزاك الموت جعل يقول لمن حوله :

- أرسلوا في طلب بيانشون ففى استطاعته وحده أن ينقذنى !

* * *

والآن وقد فرغنا من الخصائص الفنية الأساسية للقصة ننتقل إلى خلاصتها .

كان في نزل مدام فوكيه سبعة نزلاء . ففى الطابق الأول جناحان هما خير ما في النزل ، تحتل مدام فوكيه أصغرهما ، وتحتل أكبرهما مدام كوتير وهى أرملة موظف سابق في جيش الجمهورية الفرنسية ومعها فتاة صغيرة اسمها فيكتورين تايفير . وفى الطابق الثانى يسكن رجل شيخ اسمه بواريه ورجل في نحو الأربعين يزعم أنه تاجر متقاعد اسمه فوتران . والطابق الثالث به أربع حجرات تحتل إحداها عانس عجوز اسمها الآنسة ميشونون وفى الأخرى صاحب مصنع سابق للشعيرة هو الأب جوريو . وفى الحجرة الثالثة يقيم طالب الطب بيانشون . وفى الرابعة طالب في الحقوق اسمه يوجين دى راستينيك . وفى الطابق الرابع تحت السقف المنحدر حجرتان للخادم كريستوف وللطاهية العجوز سيلفيا .

ويمكن أن تعتبر هذه المجموعة صورة مصغرة لعناصر مجتمع بأسره . وكان الأب جوريو مقياً بالنزل منذ ست سنين منذ تقاعد عن العمل . جاء يومئذ في ثياب أنيقة متحلياً بساعة ذهبية لها سلسلة غليظة من الذهب تتدلى منها الأختام ، وصندوق سعوط ذهبي مرصع . فكانت مدام فوكيه تتغنى بأناقته وغنادرته وتعجب بالتحف والطرف الثمينة التي يزين بها حجرة جلوسه ومنها أدوات فضية مزخرفة تذكارية وموروثة . وقال عن بعضها إنها أول هدايا زوجته الراحلة إليه وأنه يفضل أن يحفر الأرض بأظافره طلباً للقيمة على أن يتخلى عن هذه التذكارات .

وبعد سنة من الإقامة بدأ الأب جوريو يتنازل عن شيء من بلذخه في الإنفاق ومخاء يده على الطعام والنوافل . وفي ختام السنة الثانية انتقل من الطابق الأول إلى الطابق الثاني واستغنى عن إشعال النار في مدفاته طول الشتاء مع أن اسمه ظهر في الدليل السنوي تحت باب سندات الدولة الاستثمارية بما يكفل له دخلاً سنوياً لا يقل عن عشرة آلاف فرنك مما دعى مدام فوكيه إلى اتهامه بالإنفاق على شهوات خفية تلهم إيراده الضخم . وبدأ النزلاء يتلصصون ويتجسسون إلى أن رأوا سيدتين شابتين في منتهى الأناقة تزوران خلسة ، كل منهما على حدة . وتولت الطباخة سيلفيا تعقب إحداهما عند خروجها فوجدت عربة فارغة تنتظرها في شارع جانبي ولما ووجه الرجل بهذه الحقائق الدامغة اعترف في دماثة مستسلمة أن السيدتين ابنتاه . وإن لم يبح لأحد بأنهما لا تعترفان بأبوتيه ولا تبرانه بالزيارة إلا لاستنزاف المال منه خلسة من زوجيهما .

وهكذا مرت السنوات والشيخ جوريو يقتطع تدريجاً من نفقاته الشخصية حتى انتهى به المطاف إلى الطابق الثالث وغدت ثيابه بعد الأناقة والبذخ أسهلاً كالحلة . واختفت مجوهراته وصندوق سعوطه ونحل جسمه وغطت الغضون محياه الذي كان في أول أمره

مستديراً يفيض حمرة وحيوية . فلم يعد فيه شيء من صورته الأولى . بل إن مشيته نفسها غدت مترنحة وطريقته في الكلام متعثرة .

وكان الشاب يوجين دى راستينيك طموحاً لا يكفيه أن يتخرج في كلية الحقوق محامياً ، بل همه الأكبر في شق طريق له بين صفوف الطبقة الراقية بباريس . وقد أدرك ما للنساء من نفوذ هائل في المجتمع الراقى فحصل على خطاب توصية من قريبة له عجوز في الريف تقدمه إلى إحدى ملكات المجتمع الباريسي كي تشمله برعايتها . وكانت هذه السيدة تعاني في ذلك الحين من هجر نبيل يرتغالى كان عشيقها منذ أمد طويل فوجدت في يوجين الشاب مسلاة بعض الوقت وأكثرت من دعوته إلى حفلاتها . وهناك نعرف بالدوقة لانجيه التي روت له قصة الأب جوريو التي كانت خافية عليه . فعرف أن زميله في النزل كان أكبر صناع الشعيرة وقد أثرى من استغلال القمح والحاجة في باريس أيام الثورات والحروب فكان يبيع السلعة بعشرة أضعاف ثمنها . وخصص قرابة المليون فرنك مهراً لكل من ابنتيه أناستازيا ودلفين . وكان كل همه في الدنيا رفع ابنتيه إلى طبقة النبلاء بهذه البائنة الضخمة . وبالفعل تزوجت الكبرى من الكونت دى رستو ، وتزوجت الصغرى - دلفين - من بارون ألماني ثرى من كبار رجال المال هو البارون نوسنجن . وكان أبوهما يزورهما من حين لآخر بدعوة منهما على عهد امبراطورية نابليون ولكن بعودة الملكية اشتد تزمّت الطبقة الراقية وصار من غير المرغوب فيه ظهوره في بيت صهره وصارت ابنتاه تخبجان منه فرضى بالتواري من حياتهما . وكانت الابنتان سيان في جحود أبيهما والتنكر له ورغبتهما في موته للخلاص من عاره باعتباره رجلاً سوقياً من العامة . وفيما عدا هذا كانتا شديدتي العداء فيما بينهما عن تحاسد وغرة . فالكبرى زوجة الكونت رستو تحضر حفلات البلاط لأن أسرة زوجها من أعرق الأسر

الفرنسية . أما دلفين الصغرى فزوجها أغنى إلا أنه ألمانى الأصل وزوجته لا تدعى لحفلات البلاط ولا لبيوت الأمراء ، فهى أقل من أختها الكبرى بمراحل فى المكانة الاجتماعية . ولذا فهى مستعدة أن تلحق جميع الوحول التى تغطى الشوارع الموصلة إلى صالون من الصالونات التى لا تدعى إليها كأختها .

وللابنة الكبرى انستازيا عشيق هو الكونت مكسيم المقامر العرديد الأفاق كثير المبارزات . وقد بلغت ديونه فى القمار مائتى ألف فرنك هدد انستازيا بهجرها إن لم تدفعها عنه . فاضطرت أباه أن يبيع معظم ثروته الباقية له فى ذلك السبيل . وباع أيضاً آخر ما تبقى له من تذكارات زوجته الفضية فى هذا السبيل .

أما دلفين الصغرى فكان لها أيضاً عشيق هو الكونت دى مارساى الذى كانت تطمع بنفوذه فى الوصول إلى بعض الصالونات الراقية التى لم تشفع لها ثروة زوجها الطائلة فى دخولها . وكان يتقاضاها مبالغ باهظة فى حين كان زوجها شحيحاً ، فصار على الشيخ جوريو أن يزودها بين حين وآخر بما يرضى عشيقها .

وأخذ راستينيك يلتقى شباكه على دلفين ويمنيها بغشيان القصور والصالونات التى صار يتردد عليها بحكم صلته بالدوقة وبحق اسمه العريق رغم فقره . وعرف الشيخ جوريو من وصيفة ابنته بتلك العلاقة الجديدة فلم يضيق بها بل أنفق آخر عشرة آلاف فرنك من ثروته فى تأثيث مسكن وثير فاخر للشابين العاشقين على شريطة أن يسمحا له بشغل إحدى الحجرات كى يملأ عينيه من طلعة ابنته كل يوم حين تأتى للاجتماع بيوجين .

أما الابنة الكبرى فوقع فى ضائقة أخرى حين تحتم عليها حضور حفلة راقصة كبرى وأصر زوجها على ظهورها فى جواهر الأسرة الموروثة التى كانت قد رهنتها لإرضاء لعشيقها . واضطر الشيخ رغم مرضه أن يبارح الفراش ويبيع ملاعقه وشوكة الفضية الثمينة ويرهن

معاشه السنوى ليقدم لها ألفاً من الفرنكات تستعين بها على أزمته .

وفى الوقت نفسه استطاع يوجين أن يحصل لصاحبه دلفين على بطاقة دعوة إلى تلك الحفلة فكأنما قدم إليها نجماً من نجوم السماء فى طبق من الفضة . فها هى أخيراً تظهر إلى جانب أختها فى حفلة واحدة . وذهبت الأختان إلى هناك تتباريان فى التآلق إلى الصباح رغم علمهما قبل موعد بدء الحفلة بأن والدهما على شفا الموت فى حجرته الحقيمة ينزل مدام فوكيه . ولازم راستينيك الشيخ فى ساعته الأخيرة ولم يذهب إلى الحفلة وعندما أرسل إلى الابنتين يدعوهما لوداع أبيهما الوداع الأخير رفضتا مغادرة الحفلة وردتا الرسول خائباً . وأخذ الرجل يهذى باسم ابنتيه ويناديهما فى تحب يتفطر له القلب إلى أن لفظ أنفاسه وفاضت روحه وهو يلتقى تبعه عقوق ابنتيه على زوجيهما معلناً أن حرمانه من رؤيتهما أقسى عليه من عذاب الموت نفسه .

ودفن جوريو فى مقابر الصدقة . ورفض زوجا ابنتيه القيام بنفقات الجنازة فأسهم فيها يوجين طالب الحقوق وبيانشون طالب الطب الذى مرضه وسهر عليه بحنان وحب حتى النهاية .

٣ — نصوص مختارة

— إن النزل المعروف باسم « دار فوكيه » يقبل النزلاء من الرجال والنساء شباناً وشبيهاً على السواء من غير أن تعرض هذه المؤسسة المحترمة لقلالة السوء . ولكن من الحق أيضاً أن نقول إنه ما من شخصية شابة شوهدت هناك فى مدى ثلاثين سنة . وإنه لا بد كى يقيم شاب فى ذلك النزل أن يكون المرتب الذى تخصصه له أسرته شديد الغزال . ومع هذا ففى سنة ١٨١٩ — وهى الفترة التى تبدأ فيها هذه المأساة — كانت تقيم بذلك النزل فتاة فقيرة ...

والمنزل الذى يشغله هذا النزل البرجوازي تملكه مدام فوكيه ، وهو قائم فى نهاية شارع نيف سانت جينييف ، فى الموضع الذى تنخفض فيه الأرض فى اتجاه شارع آر باليت بانخدار مفاجئ وعرب حيث صار من النادر أن تصعبه أو تهبطه سنانك الخيل . وهذا الطرف الخاص مما يوافق السكنية التى تسود الشوارع الضيقة بين قبة فال دى جراس وقبة البانتيون . . فثمة يستولى الهم على عابر السبيل مهما كان خلى البال ، وصوت مرور عربة يبدو حدثاً ، والبيوت كثيفة وجدرانها تذكر الناظر بأسوار السجون . والباريسى الذى تضل قدماء الطريق إلى هناك لن يرى سوى عدداً من النزل البورجوازية أو الملاجئ تسودها الفاقة والسامة والشيخوخة التى تدب إلى الموت ، والشباب المرح الذى يضطر إلى الكدح اضطراراً . فما من حى أشد من هذا الحى فظاعة أو أشد منه خفاء . . .

— وواجهة النزل تطل على حديقة صغيرة . . وعلى طول هذه الواجهة ممر مفروش بالحصباء عرضه مقدار قامة يفصل بين البناء والحديقة الصغيرة . . والوصول إلى الممر عن طريق بوابة جانبية تعلوها لافتة مكتوب عليها « دار فوكيه » وتحت هذا السطر « نزل بورجوازي للجنسين » .

— والطابق الأرضى من هذا المسكن المعد لاستغلاله نزلاً بورجوازياً يتكون من حجرة أولى يصل إليها الضوء من الشارع عن طريق نافذتين ، والدخول إلى هذه الحجرة من باب الشرفة ويفضى هذا الصالون إلى قاعة الطعام التى يفصلها عن المطبخ بئر السلم ذى الدرج الخشبي . . . وما من شئ أدعى لانتقاض النفس من منظر هذا الصالون الموثق بمقاعد ذات ذراعين وغير ذات ذراعين مبطنة بقماش به خطوط عريضة أحدها لاعم والآخر غير لامع على التوالى . وفى الوسط منضدة مستديرة ذات قرص من الرخام . . .

— والآنسة ميشونو العجوز تظلل عينيها الجهدتين بقطعة من التفاته الخضراء قدرة مسيجة بسلك من الحديد كاف لترويع ملائكة الرحمة وإبعادهم عنها . أما شالها ذو الأهداب المتباعدة المتساقطة فكأنما يستر تحتها هيكل عظمياً ، فشد ما كان من جسدها بارز العظام حاد الزوايا . فترى أى حمض أكل الأعطاف الأنثوية لهذه المرأة ؟ فلا بد أنها كانت يوماً ما مليحة حسنة التكوين . أهى الرذيلة ؟ أهو الحزن ؟ أهو الطمع ؟ أم تراها أسرفت فى الحب ؟ وهل كانت تاجرة بضاعتها الثياب المستعملة أم قصارى أمرها أنها كانت غانية ؟ أهى تكفر عن انتصارات شبابها الطائش الذى استنفدته فى الملذات بشيخوخة يفزع منها من يمرون بها ؟ إن نظرتها الحالية من كل معنى تورث البرودة وسحبها المتقلصة تنذر وتوعد ، وصوتها يقع على الأذن حاداً كأنما هو صوت جنذب يرسل صيحاته وهو قابع بين حشائش الأدغال عند اقتراب الشتاء .

— صعد يوجين الدرج الصغير خائر الروح . ولرآه فتح باب من الزجاج ورأى الخدم بسحنتهم الجادة كأنهم حمر تحت يد المطمرين . وكان الحفل الذى حضره قد أقيم فى قاعات الاستقبال الكبرى بالطابق الأرضى من قصر الفيكونت دى بوسيون ولم يكن الوقت قد اتسع له فيما بين توجيه الدعوة والحفل الراقص كى يزور قريبته (الفيكونتس) ولذا لم يكن قد سبق له دخول الحجرات الخاصة بها فى القصر . فهو إذن سرى الآن للمرة الأولى أعاجيب وأفانين هذه الأناقة الشخصية التى تفضح دخيلة المرأة الراقية وروحها وأخلاقها . . . والفيكونتس لا تستقبل أحداً قبل منتصف الخامسة . فلو جاء قبل ذلك بخمس دقائق لما استقبلته . أما يوجين الذى لم يكن يعرف شيئاً من المراسم المتباعدة للحياة الباريسية فألقى نفسه مسوقاً إلى ارتقاء سلم ضخيم مزين بأزهار كثيرة ، أبيض اللون ، له سياج مذهب ومفروش ببساط أحمر . وانتهى به السلم إلى جناح

الفيكونتس دى بوسيون التى كان يجهل تاريخ حياتها الشفوى ، ذلك التاريخ الذى يعتبر فى عداد تلك الأقايص المتغيرة التى تروى كل ليلة من أذن إلى أذن فى صالونات باريس .

— والفيكونتس تربطها منذ ثلاث سنين صلة بالمركز داجودا بنتو من أشهر نبلاء البرتغال وأثراهم . وهى صلة من تلك الصلات « البريئة » التى تسحر الطرفين فلا يطيقان معهما طرفاً ثالثاً . وقد ضرب الفيكونت دى بوسيون المثل للناس كافة فى احترام هذه العلاقة طوعاً أو كرهاً . وصار الناس الذين ترددوا على الفيكونتس فى الأيام الأولى لهذه الصداقة فى الساعة الثانية بعد الظهر يجدون المركز هناك على الدوام . ولما كانت الفيكونتس عاجزة عن إغلاق بابها صراحة فى وجوههم لما فى ذلك من حرج شديد ، فهى تستقبلهم ببرود مسرف ولا تحول نظرها عن كلبها الكبير ، وبذلك فهم الناس أن وجودهم يضايقها . وما أن شاع ذلك عنها حتى أدرك الجميع أن الفيكونتس لا تحب أن تزار فيما بين الثانية والرابعة ، فإذا بها فى هذه الفترة تنعم بالوحدة التامة . وكانت تختلف إلى المسرح ودار الأوبرا فى صحبة الفيكونت زوجته وصحبة المركز معاً ، بيد أن زوجها بما هو رجل كيس كان يترك زوجته دائماً مع المركز البرتغالى بعد أن يطمئن على استقرارهما فى المقصورة الخاصة . . .

— لى يوجين دعوة الفيكونتس وألقى نفسه كالمسحور عندما دخل مقصورة أمامية بالمسرح فألقى جميع المناظر المقربة تصوب إليه هو والفيكونتس التى كانت فى أبهى زينة . وفيما كانت الفيكونتس تحذنه جعلت تقلب منظارها المقرب بين المقاصير ولفتت نظره إلى وجود البارونة دى نوسنجن على قيد ثلاثة مقاصير إلى اليمين أما أختها الكونتس فكانت إلى اليسار مع صاحبها المسيو دى تراسى . وبعد أن نظر يوجين صوب البارونة (دلفين صغرى ابنتى جوريو) قال :

— إنها لفاتنة .

— حاجباها أبيضان .

— أجل . ولكن ما أجمل خصرها وأرشقها .

— ويدها كبيرتان .

— يا لعينها الجميلتين !

— ووجهها مستطيل .

— ولكن الاستطالة فيه مستحبة .

— انظر إليها كيف تتناول منظارها المقرب ثم كيف تتركه من يدها ! إن سلالة جوريو تبرز برونزاً تاماً من حركاتها .

وأدهش يوجين أن يسمع الفيكونتس تقول ذلك الكلام لأنها كانت فى هذه الفترة من الزمن تدبر منظارها فى أرجاء القاعة من تحتهما ولا يبذلوا عليها أنها تنظر صوب البارونة دى نوسنجن إطلاقاً ، ومع ذلك لم تفتها لفظة واحدة من لفتاتها أو سكناتها .

— قال الأب جوريو لطالب الحقوق الشاب :

— أيهما راقتك أكثر : الكونتس دى رستو أو

البارونة دى نوسنجن ؟

— لى أفضل السيدة دلفين لأنها تحبك خيراً مما تحبك أختها .

وما أن سمع الرجل الطيب هذه العبارة التى قلها الشاب بحرارة حتى أخرج ذراعه من تحت أغطية الفراش وشد على يد يوجين ، ثم قال الشيخ بتأثر شديد

— شكراً . شكراً . فإذا قالت لك إذن عني ؟

فأعاد الطالب الشاب أقوال البارونة عن أيها بعد أن حسنها وجمالها ، فجعل الشيخ يصغى وكأنه يرهف السمع لكلام الله .

— ذهب الخادم كريستوف رسولاً إلى السيدتين يدعوهما إلى فراش احتضار والدهما واستأنف الشيخ حديثه المتقطع إلى يوجين :

— ستحضران . لى أعرفهما . هذه الطيبة «دلفين»

أى أسى سأسببه لها بموتى ! و « نازى » أيضاً . لا أريد أن أموت حتى لا أحملها على البكاء . إن الموت يا صاحبي يوجع الطيب هو أن أنقطع عن رؤيتهما . لكم سيعذبني السأم هناك حيث أنا منطلق الآن . فالجحيم للأب أن يكون بغير أطفال . ولكنى والله الحمد دربت نفسى على الاستعداد لذلك الجحيم منذ زواجهما . أما فردوسى فكان حينها معنا فى شارع جوسيين وإن أسعدنى الحظ فذهبت إلى الجنة سيكون فى مقدورى أن أعود إلى الأرض بروحى لأطوف حولها . لقد سمعت الناس يرددون شيئاً من هذا القبيل . أترى ما يقولون حقاً ؟ لكأنى أراهما فى هذه اللحظة كما كانتا فى شارع جوسيين : تهبطان فى الصباح فتقولان لى « صباح الخير يا بابا » فأضعهما فوق ركبتي وأداعبهما ألف مداعبة ، وهما تداعبانى برقة أيضاً . وكنا نفطر كل صباح معاً ونتعشى معاً . كنت باختصار أباً يستمتع بابنتيه . وهما هناك لم تكونا تعرفان عن الدنيا شيئاً ولا تحملان هما . لكم كانتا تحبانى . يا إلهى ! لماذا لم تبقياً صغيرتين على الدوام ؟ كم أتألم ! رأسى يؤلمنى ... يا إلهى ! لو أن يديهما كانتا الآن فى يدي لما أحسست بآلام ألبته .

أنعتقد أنهما ستحضران ؟ كريستوف غبى ! كان ينبغي أن أذهب أنا إليهما . أن هذا المنكود سيحظى برؤيتهما . - وعاد كريستوف خائب المسعى ، فهب الشيخ جالساً فى فراشه وقال :

- كنت أعلم أنهما لن تأتيا . يجب أن يموت المرء كى يعرف حقيقة الأبناء . آه يا صديقى ! لا تزوج ولا تنجب أطفالاً ! ستمنحهم الحياة فيمنحوك الموت ! ستدخلهم الدنيا فيطردوك منها . كلا . إنهما ان تحضرا ! كنت أعرف هذا منذ عشر سنين . وكنت أحدث به نفسى أحياناً ، ولكنى لم أجروء على تصديقه . وانحدرت دمعتان كبيرتان من عيليه .

- آه لو كنت غنياً . آه لو احتفظت بثروتي ! آه لو لم أمنحهما كل ما ملكت يدي ! لاذن لكانتا الآن بجوارى تلعان خدي بقبلاتهما ! ولظلمت مقبياً فى دار خاصة ذات حجرات جميلة وخدم وحشم . ولكانت مدفأتى تتأجج دائماً بنيرانها ، ولكانت الآن دامتى العينين تشبهان وتلشجان ومعهما زوجاهما وأطفالهما . ولكن لا شئ من هذا لأن المال يمنح كل شئ . يمنح حتى البنات والبنين !

